

الشاقة توفيقاً كبيراً، وذلك لأن المعاني التي تفصح عنها لا تخضع لشيء خاص محدود يعرفه الجميع، إذ المعاني ليست مادية محسوسة، وإنما الألفاظ هي المحدودة بحروف معدودة وفراغ مخصوص. ومما يزيد الموضوع خطراً أن كل كلمة من الكلمات التي يستعملها الشعراء تعبر عن كل واحد منهم عن حالة مخصوصة لا يشترك معه فيها أحد مشاركة تامة. وما هذه الكلمات إلا حيل وتدابير يستخدمونها للإفصاح عن هذه المعاني التي تزخر بها نفوسهم، ولا شك في أن بها كثيراً من التسامح، كما أن بها كثيراً من الإبهام والغموض.

ويخطئ كثير من النقاد فيظنون أن لا خلاف بين الحياتين العقلية والنفسية، والواقع أن هناك اختلافاً كثيراً فالحياة العقلية قد درست، واستطاع العلماء أن يعرفوا مقدماتها وطرق استدلالها، فكان علم المنطق، أما الحياة النفسية فلا تزال على أشد ما تكون إبهاماً وغموضاً، ولهذا كان تحليل التجربة الشعرية إلى عناصرها من إحساس وشعور وخيال وعاطفة منشأ غموض كثير ينتشر بين أجزاء القصيدة الواحدة. ومن هنا كان الخلاف كثيراً ما يقوم بين النقاد في فهم القطع الشعرية المختلفة، لأنهم لا يعتمدون على مبدأ معروف للمناقشة والمقارنة، فهم لا يستنبطون بتحليل واضح سابق مشابه للتجارب الشعرية التي يتناقشون فيها، وعلماء النفس أنفسهم يقولون إن الشعور مصدر الإبهام، فما بالنا بالحياة النفسية كلها وما تنطوي عليه من رغبات وعواطف وميول وشهوات لا سبيل إلى حدها أو حصرها، وإذا كانت هذه هي الحياة النفسية وهي على أشد ما تكون التواءً وتعقيداً أفلا نسمح لما يخرج منها أن يحمل شيئاً من آثار إبهامها، ما دام جميلاً نشغف به، ونعجب بحسنه وجماله.

والواقع أن الأمر لا يحتاج منا إلى إصدار حكم ليفارق الشعر الغموض ويقاطعه، بل إن ذلك يرجع - كما رأينا - إلى الحياة النفسية ذاتها، وسواء رضينا أم غضبنا فسيستمر الغموض مسيطراً على الشعر، حتى تتضح الحياة النفسية، ولا سبيل إلى هذا الوضوح الآن، وتاريخ الشعر يؤكد أن هذا الغموض لازم الشعر منذ نشأته الأولى، فقد كان الإنسان - قبل أن يتحول محيط عواطفه إلى